عبد الله بن ســـبأ

للدكتور جواد على

— ٥ —

ذكر البلاذرى فى كتابه « أنساب الأشراف » كل أخبار أبى ذر ، غير أنه لم يتطرق إلى خبر التقاء « عبد الله ابن سبأ » بأبى ذر فى الشام ، ولا فى أى مكان آخر (١) . وقد جاء البلاذرى فى كتابه هذا بروايات عن أبى ذر لم ترد فى الطبرى مما يدل على أنه قد اغترف من منابع لم يغترف منها صاحب التاريخ . وأن أصحاب تلك الروايات لم يعرفوا عن هذا اللقاء شيئاً ، ولو عرفوه لما تركوه .

ونجد مضمون رواية الطبرى عن نظرية « أبى ذر » فى المال فى « أنساب الأشراف » ونجد أنه كان يقول بها وهو فى المدينة قبل ذهابه إلى الشام ، وأن معاوية أرسل إليه ثلاثمائة دينار ، وأن حبيب بن مسلمة الفهرى أرسل إليه مائتى دينار فردها . ونجد أشياء أخرى لم ترد فى الطبرى ؛ كل ذلك حمل معاوية على توجيه أبى ذر إلى المدينة خوفاً من إفساده أهل الشام عليه (٢) .

ويظهر من رواية « يزيد الفقعسى » أيضاً عند الطبرى أن « عبد الله بن سبأ » أصاب نجاحاً كبيراً بمصر ، وأنه وجد هنالك أتباعاً وأنصاراً ، وأنه لقنهم « الرجعة » و« الوصية » و« الطعن على الأمراء » وأنه صار يكاتب الأمصار ويدعو إلى الفتنة (٣) . حتى ألب الناس على ولاتهم وحكامهم وقاموا بتلك الحادثة الأليمة التى آلت إلى مذابح وفتن كانت سبباً لتفريق الكلمة وحدوث الحروب .

وأن الخليفة رضى الله عنه حينما أدرك خطورة الموقف أراد الوقوف على أسبابها ، ومعرفة العوامل التى أدت إلى حدوثها « فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالاً سواهم ، فرجعوا جميعاً قبل عمار فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم . وقالوا جميعاً الأمر أمر المسلمين ، إلا ان امراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم . واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه قد اغتيل فلم يقجأهم إلا كتاب من عبد الله بن سعد بن أبى سرح يخبرهم أن عماراً قد استمالة قوم بمصر وقد انقطعوا إليه ، منهم عبد الله ابن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر » (١) .

وهذه الرواية الأخرى هى فى حاجة إلى نقد ودراسة ، فالظاهر من روايات الطبرى نفسها أن « عمار بن ياسر » كان فى المدينة فى هذا الوقت (٢) ، وأن أهل مصر كانوا يراسلونه ويتصلون به عن طريق المكاتبة ، وأنهم عند ما وصلوا إلى المدينة كان بها ، والمعروف أن علاقة الخليفة بعمار لم تكن على مايرام ، فلا يعقل إرساله لأداء مثل هذه المهمة . والذى ذكره البلاذرى أن الفتنة التى ظهرت بمصر كانت ترجع إلى أعمال « محمد بن أبى بكر » و « محمد بن أبى حذيفة » حتى إن الوالى « عبد الله ابن سعد بن أبى سرح » اضطر إلى وضع رقابة صارمة عليهما لئلا يفسدا الناس ، حتى إنهما عند ما طلبا الخروج معه فى الغزو أعد لهما سفينة مفردة لئلا يفسدا عليه الناس ، فرض محمد بن أبى بكر فتخلف وتخلف معه ابن أبى حذيفة ، ثم إنهما خرجا فى جماعة الناس فما رجعا من غزاتهما إلا وقد أوغرا صدور الناس .

فلما بلغ عثمان ذلك دعا بعمار بن ياسر وسأله الشخوص إلى مصر ليأتيه بصحة خبر ابن أبى حذيفة وحق ما بلغه عنه من باطله ، وأمره أن يقوم بعذره ويضمن عنه المتبى لمن قدم عليه . فلما ورد عمار مصر حرض الناس وانضم إلى جماعة ابن أبى حذيفة ثم أرجع بعد ذلك إلى المدينة (٣) .

ولم يذكر البلاذرى أن صاحب الفتنة هو « عبد الله بن السوداء » ويتفق الطبرى مع البلاذرى فى هذا الخبر فى كل شىء سوى وجود هذا الشخص الذى قيل إنه « عبد الله بن سبأ » وقد عزا المسعودى هذه الحركة إلى محمد بن أبى بكر (٤) .

ولا أريد هنا أن أجرد اليهود من المؤامرات التى دبرت للكيد بالإسلام ، وحوادثهم فى ذلك كثيرة مشهورة يكفى أنهم هم الذين دسوا السم للرسول وأنهم كانوا يتولون نشر دعاية خبيثة بين المسلمين اضطرت « الخليفة عمر بن الخطاب » إلى اتخاذ موقف حاسم مشرف تجاههم أنقذ به العرب والإسلام . ولكنى

(١) البلاذرى أنساب الأشراف حـ ٥ ص ٥٢
(٢) المصدر نفسه ص ٥٣ (٣) الطبرى

(١) الطبرى حـ ٥ ص ٩٩ (٢) الطبرى حـ ٥ ص ١٠٦
(٣) البلاذرى حـ ٥ ص ٥١
(٤) المسعودى مروج الذهب حـ ١ ص ٤٤٠ (المطبعة البهية)

لا أريد فى الوقت نفسه أن أسلم بدعوى من يصدق الروايات والأخبار فأسلم بأن المسلمين كانوا يصدقون كل ما كان يقال لهم بلا تفكير ، وأن يهوديا نكرة لم يعرف مركزه فى اليهود ولا منزلته فى الإسلام يستطيع أن يلعب هذا الدور الذى قصه علينا « سيف بن عمر » عن جماعة عن « يزيد الفقعسى » وأنه يستطيع أن يضحك من عقول المسلمين ، وأنه يضع لهم مقالة ومقالات ثم يجادل الإمام على حيا ، ثم يدعى بعد وفاة الإمام أنه لم يمت وأنه حى يرزق فى السحاب .

ورجل هذا شأنه فى الدسائس والفتن والمؤامرات كان من الواجب الإشارة إليه بشىء من التفصيل ، والتنبيه عليه ، وكان فى وسع « معاوية » القبض عليه والتنكيل به بين الناس . ولم نجد فى شعر الرثاء الذى قيل فى قتل الخليفة « عثمان » واستشهاده ما يشير إلى هذا اليهودى الفاتن ، وقد ورد من هذا الشعر فى الطبرى وفى البلاذرى وغيرهما ما فيه الكفاية (١) .

ويظهر من تأريخ الطبرى أن المشاغبين الذين حاصروا المدينة وكانت غالبيتهم من المصريين كانوا يعرفون « بالسبائية » كذلك ، وأنهم كانوا من المحبين للفتن وأنهم لما سمعوا خطبة « على بن أبى طالب » بعد مبايعته قالوا :

خذها إليك واحذرن أباحسن ... إنا نمرُّ الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن ... بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن ... حتى يرنَّ على غير عطن (٢)

والظاهر أنهم شاغبوا على « على بن أبى طالب » وأنهم تركوا العسكر ولم يمتثلوا الأوامر وأنهم كانوا يحبون الفوضى والخروج على النظام .

وإن الأمر بعد مقتل الخليفة أصبح فوضى ، فثار العبدان على الرؤساء وخرج الأعراب لما تراءت لهم علامات الغزو وإمكان الانتقام من أهل المدن . وتجد هذه الفوضى واضحة مرسومة فى خطبة « على بن أبى طالب يخاطب بها طلحة والزبير » يا إخوتاه ! إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم أهاهم قد ثارت معهم عبدانكم ، وتابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا لا ، قال فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة ؛ وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً . إن الناس من هذا الأمر إن حرك ، على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق . فاهدؤوا عنى وانظروا ما ذا يأتيكم ثم عودوا .

واشتد على على قريش ، وحال بينهم وبين الخروج على حالها . فلما ذكر له ذلك ذكر فضلهم وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك . ونادى : برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه (١) عندئذ تذامرت السبائية والأعراب وصاروا يشاغبون على علىّ . ولما أراد علىّ إخراج الأعراب وإرجاعهم إلى مياههم أبت السبائية ذلك وأطاعهم الأعراب (٢) .

فالظاهر من هذه الروايات أن حالة من الفوضى قد عمت الأمصار بعد مقتل الخليفة « عمر بن الخطاب » الذى كان قد سيطر على الأمور سيطرة تامة . وأن الذين كان فى قلوبهم مرض وزيغ انتهزوا فرصة مقتل الخليفة وارتباك الأمر واستبداد الولاة بالرأى دون سائر الرؤساء ، فأثاروها فتنة وفوضى أدت إلى حدوث ذلك الوضع الشاذ ، فأفلتت الأمور من أصحابها وخرج العبيد والمستضعفون على قريش ، وانتهز الأعراب هذه الفرصة وقد كانت أخلاقهم وطباعهم مكبوتة فى أيام « عمر » واتفقوا مع المهيجين الذين دعاهم الطبرى بالسبائية والذين شاركوا حتى فى المشاغبة على « على » عند ما رأوا منه أنه كان يريد استتباب الأمن والقضاء على الفتن وإعادة سلطة قريش كما رأيت .

ولا ندرى لم دعاهم الطبرى «سبائية» ؟ ألأنهم أتباع « عبدالله ابن سبأ ؟ » ولكن أين كان هذا الرجل فى هذا الوقت ؟ ولم لم يشترك مع المصريين أو غيرهم عندما ذهبوا إلى المدينة وقد نسبت أكثر المصادر سبب الفتنة إلى أشخاص آخرين ؟ أم لأن جمهرتهم كانت من أهل اليمن ، وقد كانت العادة أن يقال لهم « سبابين » أو « حميرين » كما كانت فى مصر جالية كبيرة منهم قبل الإسلام وبعده ، فقيل لهم لذلك « سبائية » ولا علاقة لهذه السبائية بسبائية عبد الله بن سبأ ؛ وأن هذه « السبائية هى التى دعت الأخباريين لسبب ستراه إلى خلق أسطورة « عبد الله ابن سبأ » هذا الذى جعلنا الرواة نكتب عنه هذه المقالات . فاختلقوا شخصاً يهودياً مسلماً أبوه من سبأ وأمه سوداء من

(١) الطبرى حـ ٥ ص ١٥٥ ، البلاذرى حـ ٥ ص ١٠٢ فما بعد
(٢) الطبرى حـ ٥ ص ١٥٨

(١) الطبرى حـ ٥ ص ١٥٨
(٢) الطبرى حـ ٥ ص ١٥٩